الفصل التاسع

أخلاقيات الإسلام في خطاب جعفر بن أبى طالب أمام النجاشي

الفصل التاسع

أخلاقيات الإسلام في خطاب جعفر بن أبى طالب أمام النجاشي

بعد أن أمر الله -سبحانه- نبيه الكريم (صلى الله عليه وسلم) بالجهر بالدعوة، انقسم المجتمع المكى إلى فريقين: فريق صغير آمن بالله وبدعوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وفريق كبير ناصب محمدًا وصحبه العداء، وأذاقوهم العذاب ألوانًا، خاصة الضعفاء والعبيد والغرباء عن مكة، واضطر محمد (صلى الله عليه وسلم) -لتخفيف العذاب عن بعض أصحابه- أن يامرهم بالهجرة إلى الحبشة؛ لأن فيها ملكًا لا يُظلَم عنده أحد.

وهكذا عرف الرسول (صلى الله عليه وسلم) -منذ وقت مبكر- أهمية العلاقات الدولية، تلك العلاقات التى تحقق لأصحابه الحماية من الأعداء وعدم الظلم، فى دولة قريبة من الجزيرة العربية هى الحبشة.. وهذا أبلغ رد على من يقول: إن الإسلام لا يعترف بالآخر وقام على السيف. لقد أرسل أصحابه إلى دولة تحقق أن ملكها عادل وسيعامل أصحابه معاملة حسنة، وقد بينت الأيام المقبلة أن ما توقعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان صحيحًا.

ولم يترك أهل مكة المهاجرين مطمئنين آمنين فى ضيافة هذا الملك الكريم، بل أرسلوا وفدًا منهم كان عمرو بن العاص على رأسه، ليبين للنجاشي أن محمدًا قد أساء إليهم وفرق بين الولد وأبيه وقطع بذلك الرحم، إلى غير ذلك من التُّهَم الشائنة التى شرحها وفد قريش للنجاشي.

وكان من المتوقع أن النجاشي -حاكم الحبشة العادل- لا يمكن أن يأخذ هذه الدعاوى على عِلتها، فأرسل إلى المسلمين اللاجئين إليه؛ ليستوضح الأمر منهم، وأنابوا عنهم جعفر بن أبى طالب -ابن عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الرد، وإذا به يقدم ردًّا هو بالفعل وثيقة من وثائق الإسلام؛ لأنه وضّح الوضع السيء الذى كانت تعيش عليه جزيرة العرب قبل البعثة، وكيف أراد الله هدايتهم فأرسل منهم نبيا يعرفون صدقه وأمانته وحسبه ونسبه وأعماله الخيرة فيهم، دعاهم إلى الإصلاح وحدد معالم هذا الإصلاح، والذى يتمثل فى الأخذ بالفضائل وترك الرذائل، فيقول جعفر:

(أيها الملك؛ كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة؛ ونأتى الفواحش؛ ونقطع

الأرحام؛ ونسيء الجوار؛ ويأكل القوى منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده؛ ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث؛ وأداء الأمانة؛ وصلة الرحم؛ وحسن الجوار؛ والكف عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش وقول الزور؛ وأكل مال اليتيم؛ وقذف المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا؛ وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.... وعدّد عليه أمور الإسلام إلى أن قال: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا؛ وأحللنا ما أحل لنا؛ فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك؛ واخترناك على من سواك؛ ورغبنا فى جوارك؛ ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك؛ فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شئ؟ فقال له جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرا من سورة مريم، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، ثم قال النجاشي: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة؛ انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما أبدًا).

تحليل الخطاب:

ونتقل ما قاله الدكتور راغب السرجاني محللا الخطاب بقوله: في ثبات وثقة عالية تقدم جعفر بن أبي طالب وألقى خطابًا جليلاً مهيبًا، إن دل على شيء فإنما هو الحق وقد أجراه الله على لسانه. وفي خطابه قَسّم جعفر بن أبي طالب كلماته إلى مقاطع عدة، يحمل كل مقطع منها معنى معين، ويصل به إلى هدف خاص.

المقطع الأول: جعفر بن أبي طالب يقبح صور الجاهلية

"أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف".

فقد بدأ جعفر بن أبي طالب بتقبيح الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام، وتصويرها بصورة تأنف منها النفوس الكريمة، وتأباها العقول السليمة، وهو بهذا يرسل إشارة واضحة أيضًا تتضمن أن هذين الرسولين (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة) ما زالا على هذه الصورة الخبيثة وتلك الأخلاق الفاسدة.

ونلاحظ أيضًا أن كل مساوئ الجاهلية التي صورها جعفر لا تبعد كثيرًا عن صفة الظلم؛ فكان هناك إما ظلم مع النفس وذلك بعبادة الأصنام (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان: ١٣)، أو ظلم مع الرحم بقطع الأرحام، أو ظلم مع الجار بالإساءة إليه، أو ظلم مع الضعيف بأكل حقه.

ولنتخيل مثل هذه الصور من الظلم وهي تعرض على ملك عادل لا يُظلم عنده أحد، فكان تصدير جعفر بن أبي طالب بذكر مساوئ الجاهلية –ولا شك– قد ترك أثرًا عظيمًا في قلب النجاشي، بل في قلب أساقفته، فكان هذا المقطع من كلام جعفر سهمًا قد أُطلق في مقتل لقريش ووفدها.

المقطع الثاني: "فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه". وهنا يشير جعفر إلى أن الذي جاء بهذا الدين الجديد والمخالف لما هم عليه جميعًا ليس رجلاً أفَّاكًا كذّابًا يريد خداع الناس من أجل مصلحة ما، بل هو صادق أمين، وطاهر عفيف، ومن أعرق أنسابنا، وقد جاء بالحق الواضح.

وإزاء هذه النعوت لم يستطع عمرو بن العاص ولا عبد الله بن أبي ربيعة أن يردّا بكلمة واحدة؛ فقد كان رسول الله فوق كل شبهة، هذا إضافةً إلى أن النصارى يؤمنون بالرسل بصفة عامة، فما أكثر الرسل التي تحدثت عنها التوراة والإنجيل.

المقطع الثالث: جعفر بن أبي طالب يمجد من صور الإسلام

وهذا المقطع غاية في الروعة، فبعد أن عرض لصورة الجاهلية الحقيقية، أخذ في عرض الصورة المقابلة لها وهي صورة الإسلام، التي جاء بها هذا الرجل الصادق الأمين ، فقال جعفر بن أبي طالب:

"فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام". تقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها –وهي راوية القصة–: "فعدَّد عليه أمورَ الإسلام".

وفي ذلك التصوير لم يكذب جعفر ولم يتجمل، وإنما هي الحقيقة، فالباطل بطبيعته قبيح مقيت كريه، والإسلام بطبيعته حسن جميل محبوب، فقط عليك أن تعرض الصورة بوضوح، وستختار الفطرة السليمة دين ربها.

المقطع الرابع: جعفر بن أبي طالب يكيد من الكافرين

وهو غاية في الذكاء والتوفيق، قال جعفر: "فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا".

ثم أتبعَ ذلك فقال: "فعدَا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث".

وهنا يبرز جعفر بن أبي طالب الدور القبيح للكافرين، وكان منهم آنذاك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ولا شك أن موقفهما أصبح ضعيفًا جدًّا، ولا ننسى هنا أن صور التعذيب والابتلاء تستهوي قلوب النصارى كثيرًا؛ فهي تذكرهم بالحواريين الذين عُذِّبوا من قبل، وبالذين كانوا يفتنونهم عن دينهم بأبشع الأساليب، بل تذكرهم بصورة المسيح.

وهكذا سيطر جعفر تمامًا على مشاعر النجاشي، بل وعلى مشاعر الأساقفة من حوله، وقد ختم بيانه هذا بمقطع سياسي حكيم قال فيه: "فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاَّ نظلم عندك أيها الملك".

وهنا -وفي صدقٍ تام وفي غير نفاق ولا كذب- يرفع جعفر من شأن النجاشي، فيذكر أفضليته على من سواه في مثل مكانه، ويرفع من قيمة العدل عنده، وهو بذلك يكسب قلبه، فيلين جانبه وتهدأ نفسه؛ فلا يتسرع بحكم، ولا يجور في قضاء.

انتهى البيان المختصر من سفير المسلمين وقائد المهاجرين جعفر بن أبي طالب ، وكانت النتيجة هي خمسة سهام قوية في صدور الكافرين، وسكون -إلى حد كبير- في جوارح الأساقفة الذين كانوا يتربصون بالمسلمين بعد أخذهم هدايا عمرو من قبل.

جعفر بن أبي طالب يقرأ أمام النجاشي سورة مريم

أمام خطاب وبيان جعفر وقد بدا عليه وكأنه بدأ يقتنع بكلامه ويهتم بأمر هذا الدين الجديد، سأله النجاشي قائلاً: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قال جعفر: نعم.

قال النجاشي: اقرأه عليَّ.

وفي الآيات التي سيقرؤها على النجاشي فكر جعفر، ثم هداه الله إلى اختيار موفَّق، فبرغم كثرة السور التي نزلت في مكة، إلا أنه اختار صدر سورة مريم.

اختار السورة التي تتحدث عن عيسى وزكريا ويحيى -عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم- اختار السورة ذات السياق العذب اللطيف، تلك التي تجذب قلوب السامعين وتأخذ بألبابهم وأفئدتهم، فتنشرح صدورهم لما جاء من عند الرحمن الرحيم، فقرأ جعفر:

(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا * وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) (مريم: ١- ٢٢).

لم يتحمل النصارى أثر تلك الكلمات المعجزة، فما تمالكوا أن انهمرت دموعهم غزيرة فياضة، وبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى الأساقفة، ولم تقف هدايا عمرو حائلاً بين كلام الله وبين قلوب السامعين، وهنا وبوضوح أخذ النجاشي القرار وقال:

"إن هذا والذي جاء به موسى (وفي رواية: عيسى) ليخرج من مشكاة واحدة". وإن هذا ليعد إقرارًا منه بصدق الرسالة، وصدق رسول الله وصِدق جعفر ومن معه. ثم التفت إلى عمرو وعبد الله بن أبي ربيعة وقال لهما: "انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكم أبدًا".

وبهذا يكون الوفد الإسلامي قد نجح أعظم نجاح، ولم ينجح في إقناع عقل النجاشي وأساقفته فقط، بل تعدى ذلك حتى وصل إلى قلوبهم، وكانت هذه الجولة بكاملها في صفِّ المؤمنين، وهُزم سفيرا قريش هزيمة منكرة، وذلك في أول تجربة لقريش مع المؤمنين على أرض محايدة ([٢١٨]).

وباءت بعثة قريش بالفشل، وأستطيع أن أستخرج مجموعة من أخلاقيات الحياة فى الإسلام بشكل عام من هذا الخطاب، وكيف أنه دعوة إلى الفضائل وترك الرذائل، وهذه المباديء الأخلاقية تقوم عليها أخلاقيات الحرب، وكيف ينظر الإسلام إلى الآخر، وكيف يعتمد على مساندته له ف دعواه، وهذه الأخلاقيات هي:

١- أن الإسلام يدرك أهمية العلاقات الدولية، ويرحب بالتعاون مع الآخر، ولا يوجد أى أساس ف طبيعته ضد المخالفين له فى الدين أو العقيدة.

٢- أن النبى (صلى الله عليه وسلم) يدرك أهمية أن تقوم العلاقات بينه وبين الآخر على التعاون على البر والتقوي، وعلى تبادل العون والحماية والدفاع عن المظلومين. واتضح ذلك من قوله لأصحابه واصفًا عاهل الحبشة بأنه "ملك لا يظلم عنده أحد".

٣- أن الرسالات السماوية فى نظر الإسلام واحدة، وقد أدرك النجاشى هذه الحقيقة بعد أن استمع إلى أقوال جعفر بن أبى طالب، حيث ذكر أن ما جاء به موسى ومحمد يخرجان من مشكاة واحدة، وعقّب على الموقف بقوله لجعفر وصحبه: "انطلقوا والله لا أسلمكم إليهما أبدًا".

وهذا يدل على الأفهام السليمة والقلوب الرحيمة التى لا تتعصب ضد ديانة سماوية تكمل المسيحية، ولم يكن غريبًا أن يفهم النجاشى هذه الحقائق، وهى رسالة نقدمها لهؤلاء المسيحيين وكاهنهم الأكبر البابا بندكت السادس عشر، الذين تقوّلوا وادعوا على الإسلام زورًا وافتراءًا وبهتانًا، وادّعوا أنه انتشر بحد السيف، وأنه دعوة للصراع والحرب.

٤- أظهرت رسالة جعفر رسالة الأديان كلها فى هذا الوقت المبكر وقواعد الهداية التى

---

(٢١٨)د. راغب السرجاني: خطاب جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي، (http://islamstory.com/ar) تاريخ نشر الوثيقة ٢١/٠٤/٢٠١٠.

تقدمها للعالم، وهي:

أ) الإيمان بالله وحده ونبذ عبادة الأوثان والحجارة، ومعروف أن توحيد الله هو جوهر رسالات الأديان جميعًا.

ب) إتيان الفضائل والبعد عن الرذائل: فالفضائل التى أوضحها جعفر هي: الامتناع عن الزنا، وشرب الخمر، وأكل أموال الناس بالباطل، ووأد البنات، وقطع الأرحام، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وقذف المحصنات. ولا شك أن هذه الأخلاق هى ما تأمر به كافة الرسالات السماوية..

* * *